المحاضرة 01: مدخل إلى النص الشعري العربي الحديث

قبل الخوض في لبّ محاضرات النص الأدبي الحديث، لابد من تقديم تصور مبدئي لماهية المقياس، من خلال هذه المحاضرة التي تعتبر تمهيدية خاصة بتحديد المفاهيم وأبرز القضايا التي اهتم بها الشعر العربي الحديث، قبل التطرق للمنجزات الأدبية، شعرية كانت أم نثرية بمختلف أشكالها ومضامينها وخصائصها:

مفهوم النص:

ورد مصطلح "النّص" في معجم "المصطلحات في اللغة والأدب" على أنّه تلك «الكلمات المطبوعة أو المخطوطة التي يتألف منها الأثر الأدبي»، أو بمعنى آخر هو «مجموع الأقوال الخاضعة للتحليل، فالنص بهذا المعنى مرادف للمتن اللغوي (Corpus) وإذا كانت النظرة التقليدية للنص أخذت بمفهوم الحقيقة، وأخضعت المبنى لسيطرة المعنى وسجنت النص داخل مدلول واحد، فإنّ النظريات اللّسانية، أخذت بمفهوم المبنى وحرّرته من سيطرة المعنى» حسب ما جاءت به اللّسانيات، والذي مفاده إخراج النّص من الحدود الضّيقة التي سجنته فيها البنيوية إلى نطاق أوسع من اللّغة والمعنى الواحد، حيث تعدّدت مفاهيمه، وتأويلاته فجعلته يحمل معاني متعدّدة.

يقول "**رولان بارت**" في مفهوم النص: «أحب النص، النص لأنه بالنسبة إليّ هو هذا الفضاء اللغوي النادر الذي يغيب فيه كل شجار، وتغيب فيه كل مماحكة لفظية... ليس فيه شيء من مخاطر المراوغة والعدوان والمساومة وليس فيه تنافس اللهجات الفردية، إنّه يؤسس في حضن العلاقة البشرية»، فالنّص المكتوب بعيد عن الحشو، وخال من الزوائد لا يُبقي سوى على الأفكار الأساسيّة التي تؤدّي المعنى المقصود، ويجسد الأفكار في قالب لغوي نسمّيه نسيجا، يتشكّل من الكلمات التي بدورها تخلق الجمل فالفقرات التي تكوّن النّص، كما تدلّ كلمة النّسيج على التّرابط والاتّساق والانسجام بين مفردات النّص والجمل، تحمل في طيّاتها دلالات لغويّة ومعنويّة سليمة، لأنّ ليس أيّ تركيب لغوي نصّ، لأنّ «الاتّساق لا يتم في المستوى الدالي فحسب، وإنّما يتم أيضا في مستويات أخرى كالنحو والمعجم. وهذا مرتبط بتصور الباحثين للغة كنظام ذي ثلاث أبعاد/ مستويات: الدلالة (المعاني)، والنحو–المعجم (الأشكال) والصوت والكتابة (التعبير). يعني هذا التصور أنّ المعاني تتحقق كأشكال، والأشكال تتحقق كتعابير، وبتعبير أبسط: تنقل المعاني إلى كلمات والكلمات إلى أصوات أو كتابة»، وبهذا يأخذ النّص مفهوم قالب من المعاني يتشكّل من مجموعة من الكلمات المجسّدة كتابيّا، لا شفويّا ويكون على شكل «وحدة دلالية، وليست الجمل إلاّ الوسيلة التي يتحقق بها النص، أضف إلى هذا أن كل نص يتوفر على خاصية كونه نصا يمكن أن يطلق عليها "النصية" وهذا ما يميّزه عما ليس نصا، ولكي تكون لأي نص نصية ينبغي أن يعتمد على مجموعة من الوسائل اللغوية

التي تخلق النص»، والتي دونها لا يتحقق أيضا الاتّساق، كما يقتضي النّص استغلال الوحدات الصّغرى كأدوات لتشكيل وحدات كبرى منها كالتّماسك والاتّساق والانسجام لتحقيق نصّية النّص (Textualité)، وخدمة المعنى.

مفهوم الشعر:

الشعر الذي هو "قول موزون مقفّى يدلّ على معنى" مما يميّزه عما ليس له وزن وقافية.

كما استخدم النقاد مصطلح المنظوم لدلالة على الشعر، إذ جاء في مقدمة ابن خلدون قوله: "اعلم أنّ لسان العرب وكلامهم على فنّين في الشعر المنظوم، وهو الكلام الموزون المقفّى ومعناه الذي تكون أوزانه كلها على رويّ واحد وهو القافية، وفي النثر وهو الكلام غير الموزون، وكلّ واحد من الفنّين يشتمل على فنون ومذاهب في الكلام" تجعله يتميّز عن الآخر.

فالنص الشر العربي الحديث هو نصّ أدبيّ يشير إلى شكل جديد في الكتابة الشعرية في الأدب العربي سواء من ناحية الشكل أو المضمون، يحاول من خلاله الشاعر التخلّص من القيود التقليدية المسيطرة على القصيدة العربية منذ الأزل، هو ثورة على التقليد ظهر مع بدايات القرن العشرين خاصة مع حركات التجديد التي قادها أدباء وشعراء أمثال سامي البارودي وأحمد شوقي وخليل مطران...وغيرهم من الأسماء التي حاولت خلق شعرا أكثر حريّة وعمقا يعبّر عن الواقع الداخلي والخارجي بأساليب فنّية جديدة، سنتناولها في المحاضرات اللاّحقة.

العصر الحديث:

إنّ الحديث عن العصر الحديث كمؤشر زمني يستلزم استحضار العصور الأدبية السابقة له، التي لها ارتباط حضاريّ وعقليّ وثقافيّ به، والتاريخ الأدبي مرتبط ارتباطا وثيقا بالواقع السّياسي والاجتماعي لأيّ أمّة من الأمم، وهذا هو حال الأمّة العربية التي سارت بدورها على هذا المنوال طيلة تاريخها، فتقسيم الآداب إلى عصور لم يكن عبثا، وإنّما تسهيلا لدراستها ضمن معطيات كلّ عصر "والمراد بعصور تاريخ الأدب هذه المسافات الزمنية التي تجمع إلى الآداب ماله به من ارتباط قوي من النظم الاجتماعية، والحالات السياسية والدينية التي لها شأن في تصوير الأدب بصورة العصر الذي ينشأ فيه"، وقد اختلف الدارسون في تحديدهم للحدود الزمنية الفاصلة بين كل عصر أدبي وآخر "فمنهم من نظر إليه من ناحية أصالة لغته فقسمه إلى أدب قديم وأدب مخضرم وأدب مولد وأدب محدث، ومنهم من نظر إليه من ناحية علاقته بالبيئة السياسية والاجتماعية فقسمه إلى أدب جاهلي وأدب إسلامي وأدب عباسي وأدب انحطاط وأدب نهضة" أو عصر تطور الأدب. ولكي نفهم هذا العصر لابد من العودة اذن إلى العصور ما قبل النهضة، وأهمّ عصر هو:

عصر الضعف(الانحطاط): هو عصر شهد فترتين من الحكم (الطور المغولي/ المماليك 656هـ-922هـ/ الطور العثماني/الأتراك 922هـ-1213هـ) أين شهد الأدب مرحلة ضعف بشقيه الشعري والنثري، بسبب اضطراب الحياة السياسية، والهجومات المغولية والصليبيّة، وعدم تشجيع الخلفاء للأدباء، وكذا شيوع الجهل والفقر والظلم. ولم يبق منه سوى القليل مما يحفظ ماء وجه للأدب وهو شعر الزهد، والمديح والشعر التعليمي والنثر العلمي المتأدب.

عند الانتقال نقلة نوعية من عصر الضعف والانحطاط إلى العصر الحديث، تتشكل عند العرب غيرة على الأدب، مما يؤدّي إلى انقسامهم إلى قسمين، أي معناه ظهور مدرستين: المدرسة الكلاسيكية، والمدرسة، ومدرسة المهجر انطلاقا من فكرة الدعوة او السعي نحو التجديد في القصيدة العربية.

العصر الحديث هو العصر بعد العصر القديم، والعصر هو الدهر الذي يرتبط بشخصية مادية كملك، أو شخصية معنوية كدولة...كما يشر إلى حقبة من التطورات الطبيعية والاجتماعية والسياسية والفكرية. كما يمثّل مرحلة من مراحل التاريخ البشري، تم تقسيمه إلى: العصر القديم، والمتوسط، والحديث.

العصر الحديث: مصطلح استخدمه المؤرخون الغربيون لوصف فترة زمنية مرّت في تاريخهم حدّدوها بالقرن 15 تقريبا، جعلوها كفاصل بينها وبين العصور الوسطى، حيث رأوا فيها فترة تغيرات جذرية مسّت جميع نواحي في أروبا.

وعليه يمكن القول بأنّ العصر الحديث في العالم العربي كانت بداياته في القرن التاسع عشر، لأنّ هذه الفترة تميّزت بظاهرة الاقتباس من الغرب كمرحلة أولى مع قيام الدولة الحديثة في مصر عام 1805م، وظهور حركة تغيير في إسطنبول مركز الخلافة الإسلامية قادها (سليم الثالث) ثم (محمود الثاني)

عوامل النهضة في العصر الحديث:

-حملة نابليون على مصر

-الاستشراق، وهو "انصراف بعض العلماء في دراسة الشرق وأحوال دوله، وتاريخ شعوبه، وأديان أممه ولغاته، وما لهذه الأمم من آداب وعلوم وتقاليد في غابر أيامها وحاضرها".

-ظهور الطباعة والصحافة

-الحركات الدينية والاصلاحية التي لعبت دورا مهما في السعي إلى رسم معالم توجه نهضو وتربوي.

-نشاط حركة الترجمة: التي كان لها الأثر البارز في حركة النهضة، حيث عمل علماء وأدباء العرب بنقل وترجمة وتعريب التراث العالمي إلى اللغة العربيّة.

-البعثات العلمية، وإنشاء المكتبات كالمكتبة الظاهرية بدمشق عام 1878م، والمكتبة الأزهرية بمصر، والمكتبة الشرقية بدمشق.

-المجامع العلمية والأدبية التي لعبت دورا مهما في دفع حركة النهضة في العالم العربي، ومن أشهرها: "الجمعية السورية ببيروت عام 1847م"، و"المجمع العلمي الشرقي ببيروت عام 1882م"، و"مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام 1932م".

المراجع:

-حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب الحديث، ط1، دار الجيل، بيروت-لبنان، 1986.

- رولان بارت، لذة النص، تر: فؤاد صفا والحسين سبحان، ط1، دار توبقال، الدار البيضاء، 1988.
-محمد خطابي، لسانيات النص-مدخل إلى انسجام الخطاب-، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب، بيروت-لبنان، 2006.

-عمر الدسوقي، في الأدب الحديث، ط8، دار الفكر، بيروت-لبنان، 1973.

-محمد عبد المنعم خفاجي، دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه، ط1، دار الجيل، بيروت-لبنان، 1992.

- مجدي وهبه وكامل المهندس، معجم المصطلحات في اللغة والأدب.